آراء وافكار

عجز اللغات

وحين أضيف (العجز) للغات لا أستثني واحدة من جميع اللغى المعروفة في العالم، نعم كلها عاجز، وان كان هذا العجز يتفاوت بينها بقدر كبير او صغير، ولقد يخيل اليك وانت تطرح نظرك على ألوار المعاجم والموسوعات إن أكثر اللغات غنيّ سري لم يدع غرضاً الا احصاه، ولا معنى الا اداه، ولا جليلاً الا شكله؛ ولا دقيقاً الا اصابه، وخاصة لغة العرب، فانك تجد فيها من البذخ وعظم الافضال ما يمتد الى شدة لافراط وغاية الاسراف، فهي تطلق على كل من الجمل، والغزال، والسيف، والخمر، وغير هذه من الاسماء والنعوت مالا يعلم عدته الا الله. وهي في كل باب تفيض على المعنى الواحد من الالفاظ اشكالاً والواناً، و يحسبك ان تقرأ للمهيبين من متقدمي اهل البيان من امثال الجاحظ ليعاجلك الانبهار من غنى هذه اللغة ومابلغت في ذلك العصر، من اليسار، الى حد ان الكاتب من هؤلاء يردد على المعنى الواناً كثيرة من التعبيرات والصيغ لاتدعو اليها حاجة في تقرير المعاني واساغتها لفهم القارئ، وانما تدعو اليها موسيقى النظم من جهة، ومكاثرة الكاتب بالوفر من اللغة من جهة اخرى.

ومع هذا كله فانني ما زلت ازعم ان اللغات المعروفة كلها، وفيها العربية قاصرة من بعض النواحي واضحة القصور، عاجزة شديدة العجز. ولست أريد بتلك الناحية ماسبق لي ان قررته في رسائل (ادبنا القومي) من عجز العربية عن أداء كثير من الاغراض الحديثة، والمسميات الطريفة، فان لغات الغرب تؤديها كلها احكم الاداء، هذا الى ان للعربية عذرها في ذلك فلقد انقبضت دهراً طويلاً انبعث فيه العلم الحديث. واقبلت أذهان الغربيين على الاستنباط والاستكشاف والابتكار والاختراع، حتى لم يكد ابناء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشرق يفتحون عيونهم بعد طول هجعتهم الا وقد راعهم ان رأوا كل ما يحيط بهم غريباً عنهم · جديداً عليهم ، بل الذي أعنيه واتهم اللغى جميعاً بالتقصير فيه هو شيء قديم جداً ، أقدم من العلم ، واقدم من الاختراع ، واقدم من اللغات نفسها ، وهو انفعالات الوجدان ·

نعم ، لقد تهيأ للغات حقاً ان تؤدي حاجات العلم ، وان تفرغ الاسماء على كل مايحيط بنا من الماديات ، وان تسبغ الصيغ على الاسباب الدائرة بين الناس ، وان تبسط الالفاظ للترجمة عن كل مايدور في رؤوسنا من الأفكار والآراء · وبهذا استطاع الناس ان يتطارحوا الافكار ويتباحثوا فنوناً كثيرة من المعاني · ومع هذا قد بقيت انفعالات الوجدان كل هذه الادهار ، بحجزة لا تؤديها اللغة الا بالجملة ولا تمسها ، ان مستها ، الا من بعيد ·

ومن بديه القول ان الناس من يوم درجوا على هذه الارض يحبون ويبغضون ، ويفرحون ويحزنون ، و يبصرون ويسمعون ، ويذوقون ويشمون ، ولكل شيء من هذا اثر خاص في الحس لايكون لغيره ولا يعدوه الى سواه ، وهذا يجده كل انسان ، بل لقد يجده كل حيوان فترى ماذا ارصدت اللغة للترجمة عن هذه الأحساس المشتركة بين الناس جميعاً ؟

لقد زعمت لك ان اللغة لاتصيب هذا الضرب من المعاني الا بالجملة ، ولا تمسه ، ان هي مسته ، الا من بعيد ، واني أضرب لك طائفة من الأمثلة يتضح بها هذا المقا ·

هنا لك شيء تعرفه انت ويعرفه الناس جميعاً من عهد آدم وولده يدعى (الحب) · وان المرء ليحب أمه ، وانه ليحب اباه ، ويحب اخاه ، ويحب أخته ، ويحب ولده ، ويحب زوجه ، ويحب صحبه ، هو ، في الغاية ، يحب هؤلاء جميعاً وهو لا يستطيع ان يترجم مايجده لكل منهم الا بكلمة (الحب) اذ الواقع انه انما يشعر لكل منهم بشعور خاص متميز لايخالط غيره ، ولا يشبه في كثير من عناصر الحس سواه ، فاذا اقتضيتني الفروق بين هذه الالوان من (الحب) قررت لك انني عاجز عن بيانها بياناً واضحاً دقيقاً لان اللغة لم تبينها بياناً واضحاً دقيقاً وكل مااستطيع ان ابلغه من هذا ان اعين كل واحد منها باسبابه وملابساته لا بجوهره ومذاقه كأن اقول لك ان حب الام يمتاز بعرفان الجميل لما عانت في حمل الولد وولادته ، وإسهاد الجفن في إرضاعه وتعليله ، وتحيضه اصدق الحب ، وإيثاره حتى على النفس ماتبغي من وراء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك اجراً ولا شكراً ، وان حب الاب يمتاز فوق عرفان الجميل بما ربى وما انفق ، وما جهد في سبيل التربية والتأديب ، ويمتاز بالاعظام لانه سبب انحداره الى هذه الدنيا ، و بانه الاصل الذي ينتسب اليه ، ويتعرف الى الناس به . والتمس مثل هذه الاسباب لحب الأخ والولد والام والصحب وغيرهم .

انني أستطيع ان أفعل هذا ، ولكنني لا استطيع ان اقع بك على كل لون من ألوان هذا الحب بحيث تستحضره وتستشعره كما أستطيع ان اقع بك بفضل التعبير ، على مطالب العقل مثلاً ، فسرعان ما تدركها تامة وتتصورها كاملة . فان شئت ان تحسها وتستشعرها فليس هناك من سبيل الا ان تراجع فيها نفسك ، وتفتش عنها بين اضالعك ، فهناك تعرفها ابلغ المعرفة ، وتدركها اتم الادراك .

وان المرء ليحزن لان يغشى المكروه احداً من هؤلاء ، ولكن لكل حزن كذلك انفعالاً خاصاً لا يخالط غيره ولا يشاركه في مذاقه سواه .

ثم انك تشم الورد فتنتعش بشذاه ، وتشم الياسمين فتزكو نفسك بطيب رياه ، وتشم القرنفل والفل والنرجس والمسك والند والعنبر والطيب وغيرها من كل ما يستريح اليه الانف ، وتزكو به النفس ، ولكن مما لا شك فيه ان لكل من هذه ريحاً خاصة ، تنفعل بها النفس انفعالاً خاصاً لا يخالطه غيره ، ولا يشركه فيه سواه .

فقل لي بعيشك ، كيف كان سبيل اللغة الى التعبير عن كل منها تعبيراً يحضره نفسك ، ويصله بوجدانك ؟ اللهم ان كل ما اتسعت له اللغة من نحو ما يأتي : هو نبات اوزهر طيب الريح ، له عرف ، له شذى ، له اريج يتضوع الخ الخ . وكل هذه نعوت تصلح للجميع . فاذا هي تزاحفت قليلاً للتمييز والتحديد لا تعدو ان تميز بين بعضها وبعضها بالخفة والشدة والضعف والسطوع ، وهذا مالا يغني في كثير .

ثم انك تطعم من الفاكهة التفاح والخوخ والمشمش والعنب والموز والرمان والكمثرى والسدر والتين والبلح بضروبه ، والكرز والمانجو والبطيخ والشمام والبرتقال واليوسفي ، والليمون الحلو ، وغيرها مما تخرج الارض من فاكهة وثمر ، أفترى في مذاقك واحداً منها مثل الآخر في اكثر مشابهه ؟ الواقع لا ! على ان كلها في تعبير اللغة ، حلو ! فاذا هي استشرفت للتمييز ، وشمرت للأداء لم تزد على حلو حامض ، او مز ، او نحو ذلك مما يسلكها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فصائل لا افراداً ! ومن تداعي المعاني أذكر في هذا المقام ان امير الشعراء قد أبدع كل الابداع في قوله : (وكذاك كل مليحة بمذاق) ويقول الله تعالى في كتابه العزيز (والنخل والزرع مختلفاً أكله) وليس بعد كلام الله تعالى كلام .

ثم انك لتفرح و يشيع فيك السرور : تفرح لانك اصبت ثروة ، وتفرح لان ابنك أبل من مرض ، وتفرح لانك ظهرت على عدو ، وتفرح لانك وافقت حبيباً في غفلة من الرقباء ، وتفرح لانك أصبحت ذا منصب وجاه ، وتفرح لانك هديت الى زوجة صالحة — انك لتفرح لكل هذا ولغيره وتسر به وتغتبط ، ولكن لكل فرح من هذه مذهباً ، ولكل منها وجداناً يميزه عن غيره ، و يستقل به عما عداه . اذ اللغة لا تسعفك في هذا كله الا بالفاظ الفرح والسرور ، والاغتباط ونحو ذلك مما لا يجدي فيما نحن بسبيله فتيلا .

هذه طائفة من الامثال اوردتها عليك لتدرك بها مبلغ عجز اللغات في هذا الباب . ولا شك بعدها في ان امرءاً لم يرزق الولد يستحيل ان تشعره حب الولد ، وان امرءاً لم يطعم الكثرى يستحيل ان تقرب من نفسه مذاقها . وان امرءاً لم يرتفع الى المنصب هيهات ان يستشعر لذة الجاه والسلطان ، وذلك ان اللغة التي واتت مطالب الانسان في كل شيء ، وافضلت عليه الافضال كله ، واذنت له في ان يسرف في الالفاظ ، ويتبذخ بفنون التعبيرات في كل جليل وحقير ، حتى لقد اسعفت خياله في الصعود الى جو السماء ، والغوص الى قرارة الدأماء ، واقامت له عند السماك مأربا ، وفسحت له في الأفلاك مطلبا ، ورحم الله ذلك الشاعر البارد يقول عن ممدوحه :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منطق !

هذه اللغة التي وانت بهذا كله ، واسعفت في ذلك اجمعه ، ما زالت تضن على الناس بالاسعاد فيما يجده كل امرئ منهم كل يوم وكل ساعة وكل لحظة : مما تختلج به احساسهم وتجيش به عواطفهم ، ويتحرك له وجدانهم !

* * *

وبعد فثم مسألتان ان لم تدخلا في صميم هذا الموضوع فانهما متصلتان به اوثق الاتصال ، واحداهما جمال الخلق ، والثانية جمال الصوت . وقبل كل شيء نقرر ان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ارادة اللغة على ان تتناول موضوعها بالتبسط والتفصيل لاتخلو من الارهاق والاعنات . على انها اذا لم تكن مطالبة بالتفصيل فهي ولا شك مطالبة بالاجمال .

جمال الخلق في كل مكان من هذه الارض وفي كل زمان . وان الناس ليتعشقون الجمال ويكلفون به ، وانه ليأخذ في نفوسهم كل اخذ ، حتى مايكاد يدع بعضهم يفكر او يتحدث الا فيه ، او يطلب من دنياه غير هواه ، ولقد تبلغ به الفتنة في هذا الى حد الصرع والى حد الجنون . وكثيراً ماتجرد الشعراء والادباء في وصف فتاة مليحة فافتنوا في هذا وتطيرت فيه أخيلتهم كل مطير ، ولكنهم كسروا كل جهدهم على ان هذه المرأة او تلك الفتاة فتانة ، بارعة الحسن ، رائعة الجمال ، فاذا هم تدنوا الى التفصيل مازادوا على انها فارعة الفرع (هذا اذا كان شعرها سرحًا) او انه (أثيث كقنو النخلة المتعثكل) اذا كان شعرها جعداً ، وانها واضحة الجبين ، وانها مقوسة الحاجبين ، حتى لكأنهما (نونان) وانها سابغة الهدب ، نجلاء العينين ، اسيلة الخدين حتى كأن الشمس تجول فيهما ، وان لها أنفاً كحد السيف ، وان لها شفتين قدتا من العقيق . وثنايا صيغت من الدر اوالتوم .

وثناياك انها اغريض ولآل نوم و برق وميض
واقاح منور في بطاح هزه في الصباح روض اريض

الى آخر مايسبغ على الغانيات ، من فنون النعوت والصفات .

وانك لتخرج بعد هذا ، وذهنك لا يتصور كل جميلات النساء في عشرة قرون الا مطبوعات على غرار واحد ، بارزات للعالم في صورة واحدة ، بحيث لايقع بين خلقهن اي اختلاف اللهم الا في الاسماء والالقاب . فهذه هند ، وهذه دعد ، وهذه تماضر ، وهذه بثينة ، وهذه ليلى العامرية ، وهذه ليلى الاخيلية الخ . ولعمري ، لست أدري كيف كان كل شاعر متعشق من شعراء العربية يميز معشوقته و يهتدي الى هواه بين سائر الجميلات من النساء ؟ وما يحدث به عن الجمال ، في هذا ، حدث به ، عن القبح سواء بسواء .

الواقع انه من العنت والارهاق ان تريد اللغة على ان تصف لك خلق انسان حتى كأنك تراه او ترى له تمثالاً محكماً او صورة من نقش صناع . وانه مهما جد المرء ودق وصدق في وصف انسان بتناول كل اعضائه وتصوير جميع اجزائه . فانك حين تراه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تراه على صورة مغايرة للصورة التي تمثلت في ذهنك تمام المغايرة . ولكن المشاهد المحسوس ان الناس مهما تفرقوا في خلقهم بالحسن والقبح . ومهما اختلف الخلق بين كل من هؤلاء وكل من هؤلاء ، فانه ما من انسان الا ينتسب في كيفية تكوينه ونظام خلقه الى فصيلة معينة تحس بهـا انت في نفسك ، و يشعر بها غيرك في نفسه ؛ سواء أكانت دارسة المعالم ام واضحة الحدود .

وهنالك اصوات المغنين مثلاً . تسمع منهـا العشرات او المئات فترى لكل واحد منها لوناً ، وتجد له مذاقاً خاصاً ، فاذا أردت ان تصف احداها لمن لم يسمعه فلست تعدو ان تقول انه جميل ، اوحلو ، فاذا طلبت (الفن) ليعينك و يسعدك في وصفك ، قلت انه رفيع او عريض ، وانه اذا ارتفع تسلخ او ظل على استمساكه ، وانه اذا تدلى الى (القرار) تقلص اودوى وتفخم الخ على انك لا تخرج من هـذا بجليل ، اللهم الا ان يقول لك ان هـذا الصوت من (بدنية) صوت فلان ولست خارجاً بشيء اذا لم تكن سمعت صوت فلان هذا .

والواقع ايضاً انه ما من صوت كريم او غير كريم الا ينتسب ، في الاصوات ، الى فصيلة معينة تحسهـا انت و يحسها غيرك ، سواء أكانت هي الاخرى دارسة المعـالم ام واضحة الحدود .

والحاصل ان اللغات لم تعن العناية الكافية بتعيين هذه الفصائل فلم تحررها من الالفاظ والصيغ مايجليها تمام التجلية على النفس . و يصلها تمام الصلة بالشعور .

نعم ، لقد عنيت لغات الغرب بشيء من هذا ولكن الامر مابرح يتطلع منها الى مزيد . اما العربية فما احسبها عنيت منه بجليل ولا صغير .

* * *

وبعدُ فلو انه قدر للغـات ان تتدسس الى مطاوي الوجدان فتحدث عن كل ما يشيع فيه من شعور ، و يترقرق من حس ، ثم لو انهـا استطاعت ان تمثل للنفس ، ولو على جهة التقريب ، صورة مما تقع عليه العين وتسمعه الاذن — لتم للادب كماله ، وتهيأ للنفس ان تنفض كل مافيها واضحاً جلياً في غير مطاولة ولا كبير عناء . ثم لقام قلم الشاعر اوالكاتب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مقام ريشة المصور او (اسطوانة الفونغراف) وذلك المثل الاعلى للادب الصحيح . فهل ترانا بالغيه في يوم من الايام ؟ .

وربما كان من الخير ان نعـاود هذا الموضوع نزلة أخرى فانه اجل واضفى من ان يستوفي الكلام فيه مقال .

« باحث »